قافلة الزيت

جمادى الثانية ١٣٩٤ - (يونيو - يوليو ١٩٧٤)

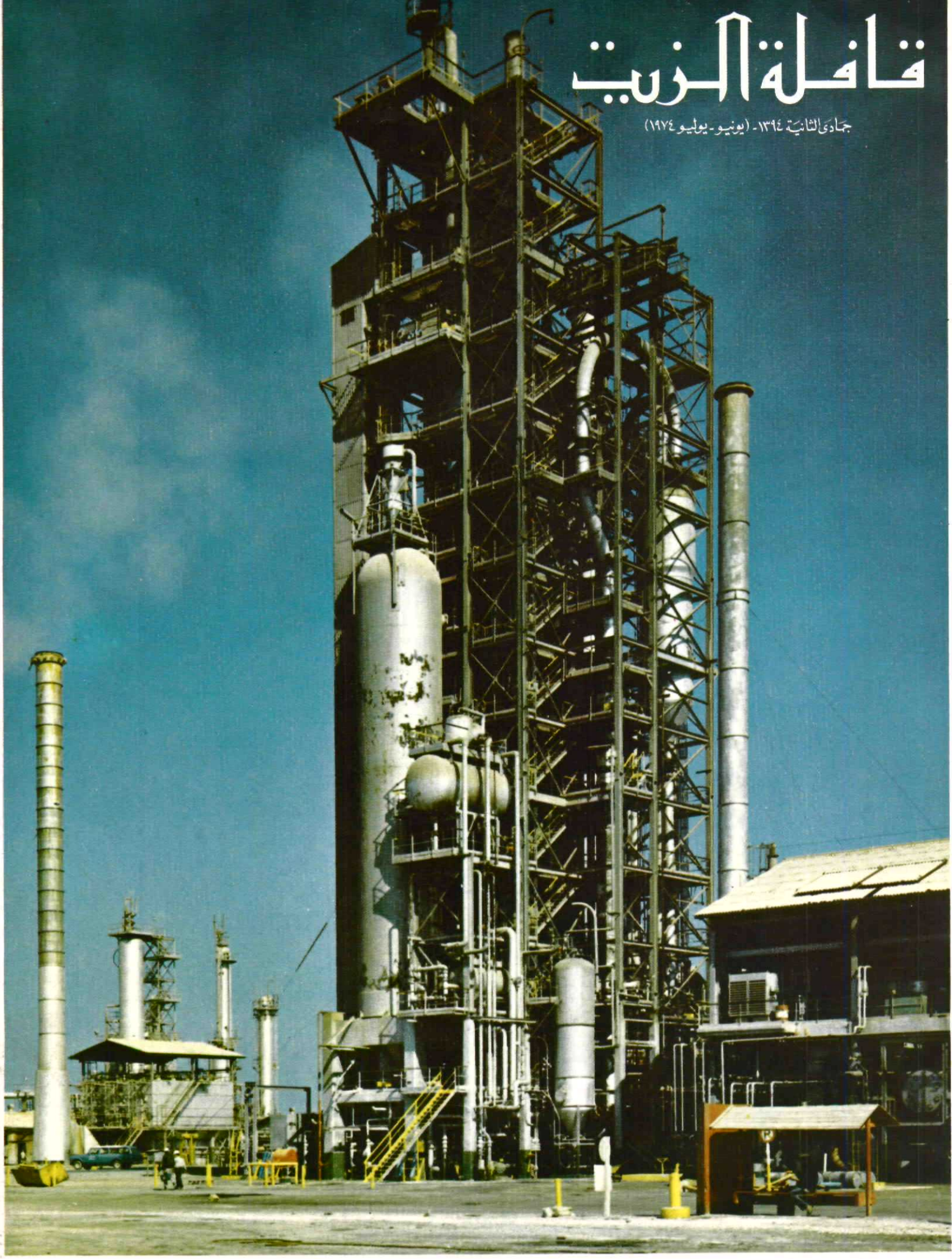

منظر عام لمدينة تلمسان بالجزائر يجمع بين الأسلوب القديم والحديث
في فن العمارة - راجع مقال « تلمسان عروس مدائن المغرب الأوسط »

تحت المجهر

عروس مدائن المغرب الأوسط

بقلم: الأستاذ محمد عبدالله عنان

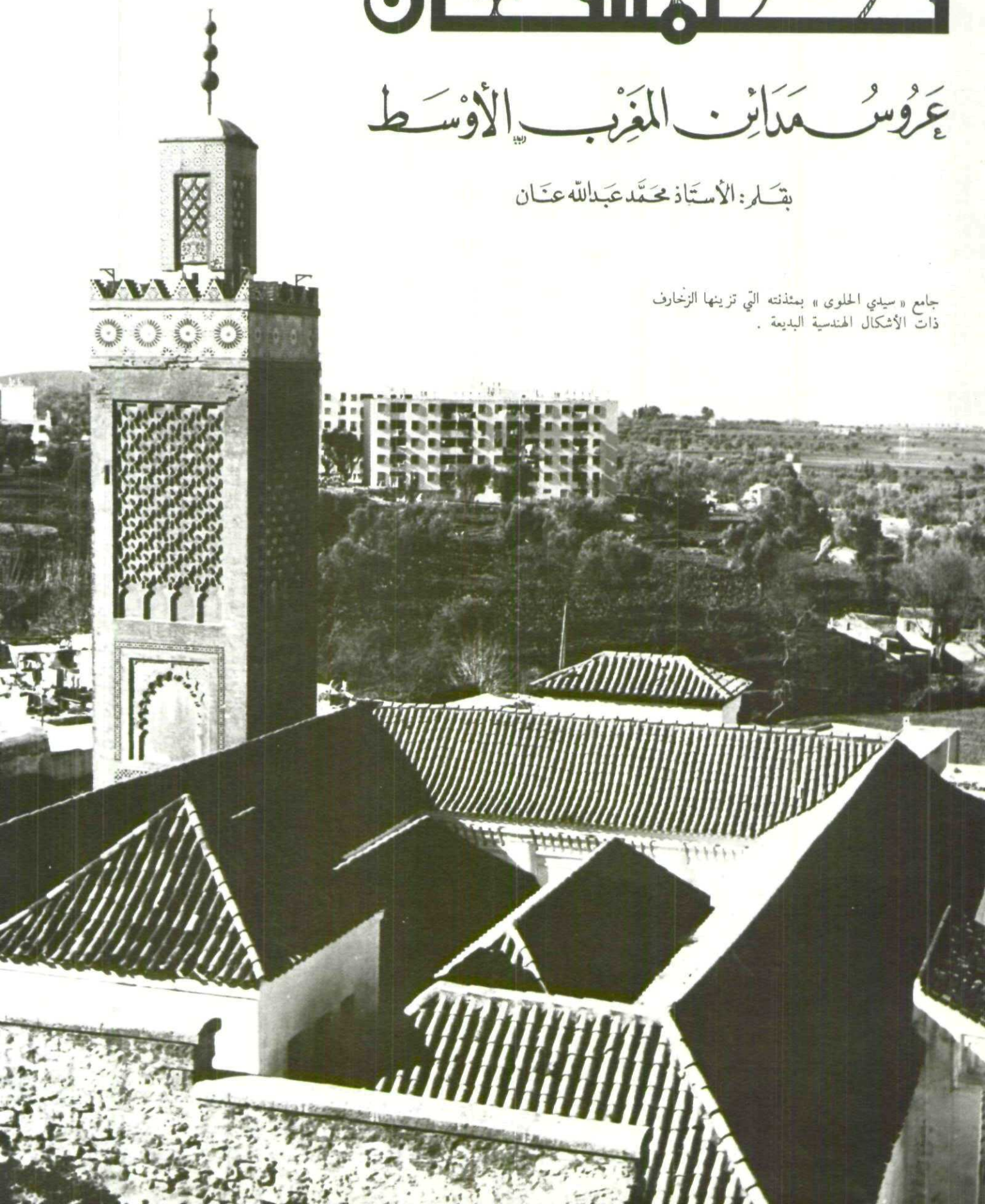

جامع « سيدي الحلوى » بمئذنته التي تزينها الزخارف ذات الأشكال الهندسية البديعة .

بعض البقايا الأثرية لمدينة المنصورة المرينية .

« باب الجميلة » وهو أحد الأبواب التاريخية في مدينة تلمسان ، بالجزائر وقد اعتلت واجهته النقوش والزخارف الدقيقة .

ان تلمسان هي حقاً ، عروس مدائن المغرب الأوسط ، سواء بموقعها الفذ فوق الهضبة الخضراء او بخططها وصروحها الجميلة ، أو بماضيها التالد ، وتراثها العلمي العريق ، وكانت تقوم مكانها في العصر الروماني محلة صغيرة تسمى « بوماريا » لا نعرف الكثير عن تاريخها . ثم استقر الاسلام وتوطد في تلك المنطقة منذ أواخر القرن الثاني من الهجرة .

أما عن اسم تلمسان ، فيقول الوزير يحيى ابن خلدون ، انه اسم بربري مكون من مقطعين « تلم » ومعناه تجمع « وسن » ومعناه اثنان ، أي الصحراء والتل ، ويقول البعض الآخر ، انه مأخوذ من الكلمة البربرية « تلماس » وجمعه تلمسان ، ومعناه منابع الماء . وعلى هذا فان تلمسان القديمة كانت تسمى « أغادير » أما تلمسان الحديثة ، فقد انشأها المرابطون في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وذلك حينما حاصروا تلمسان القديمة (أغادير) وأطلقوا عليها اسم « تاجررت » أي المعسكر ، وأنشأوا جامعها الأعظم الذي ما زالت تزهو به حتى اليوم . ولما سار عاهل بني مرين السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب الأقصى ، لافتتاح تلمسان في سنة ٦٩٨هـ ، بجيوشه الجرارة ، حاصرها بشدة زهاء خمسة أعوام ، وبنى حولها سوراً لاحكام الحصار ، واختط الى جانب السور من الناحية الغربية محلة ملكية ، أنشأ بها قصراً ومسجداً وقلعة وادار حولها السور ، واختط الناس من حولها الدور والفنادق والحمامات ، وأنشأ فيها السلطان مسجداً جامعاً ومارستاناً ، وسماها « المنصورة » فكانت من أجمل أمصار المغرب . ولما توفي السلطان يوسف ، وغادرت جيوشه تلمسان قام آل زيان امراء تلمسان بتخريب المنصورة . ولما افتتح السلطان ابو الحسن المريني تلمسان سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦ م) من يد آل زيان (بني عبد الواد) جدد اثار المنصورة . وما زالت تمثل من آثارها حتى اليوم خارج تلمسان طائفة كبيرة من اطلال صروحها القديمة . وهكذا تكونت تلمسان من المدن الثلاث المتعاقبة ، أغادير في الشرق ، وتاجررت في الوسط ، والمنصورة في الغرب . ولم تبق منها اليوم سوى المدينة الوسطى ، محتفظة باسم « تلمسان » ، وهي المدينة التي نمت وازدهرت وأصبحت من أعظم حواضر المغرب .

منظر داخلي لجامع « سيدي الحلوى » وقد بدت بعض أعمدته مزدانه بالزخارف والنقوش .

تقع تلمسان في شمال هضبة كبيرة تتجه نحو الجنوب الغربي والشمال الشرقي . وتكثر الحقول والبساتين اليانعة في المنطقة الجنوبية . وتمتاز هذه الهضبة الفريدة ، بتكوينها من صخور اسفنجية تتخللها مياه الأمطار لتملأ آبارها وخزاناتها ، وتمد المدينة وحدائقها وحقولها ايام الصيف بالماء ، وتمد هذه المزارع بدورها المدينة ، وسائر المنطقة ، بمقادير عظيمة من البقول والفاكهة . كما تكثر في أطرافها الغابات من مختلف الأشجار .

ولتلمسان تاريخ عريق يكوّن فصولاً ممتعة من تاريخ المغرب الكبير . وهي تمتاز منذ العصر المرابطي الذي ترجع اليه خططها الأصلية ، بشخصيتها القوية بين حواضر المغرب ، والى هذا العصر أيضاً يرجع جامعها الأعظم ، وهو من أكبر وأجمل الجوامع المغربية . أسسه زعيم المرابطين « يوسف بن تاشفين » وهو يمتاز بزخارفه وكتاباته البارزة الرشيقة ، ولا سيما في دائرة القبة ، وعلى المنبر . وجاء الموحدون بعد المرابطين ، وبسطوا حكمهم على تلمسان زهاء قرن من الزمن ، من منتصف القرن السادس الهجري الى منتصف القرن السابع ، ولم تقع خلال حكمهم في تلمسان احداث ذات شأن ولم يضيفوا جديداً الى صروحها سوى ما قام به الخليفة « عبد المؤمن بن علي » من زيادة في الجامع الأعظم تجلت في محرابه الأثري الفخم الذي ما زال يزدان به ، وما قام به الخليفة محمد الناصر من انشاء ضريح العلامة الفقيه « الولي ابي مدين » الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد .

على ان تلمسان لم تلبث ان غدت على أثر انحلال الدولة الموحدية ، عاصمة لمملكة مستقلة زاهرة ، في ظل بني عبد الواد ، الذين ينتمون الى بعض قبائل المغرب الأوسط . وزعيمهم ومنشىء دولتهم « يغمُر أسن بن زيان » . وقد استطالت مملكة بني عبد الواد ، الذين يعرفون أحياناً ببني زيان بتلمسان ، زهاء قرنين فقدوا اثناءها تلمسان غير مرة ، واستردوها غير مرة ، وكانوا هدفاً لغزوات

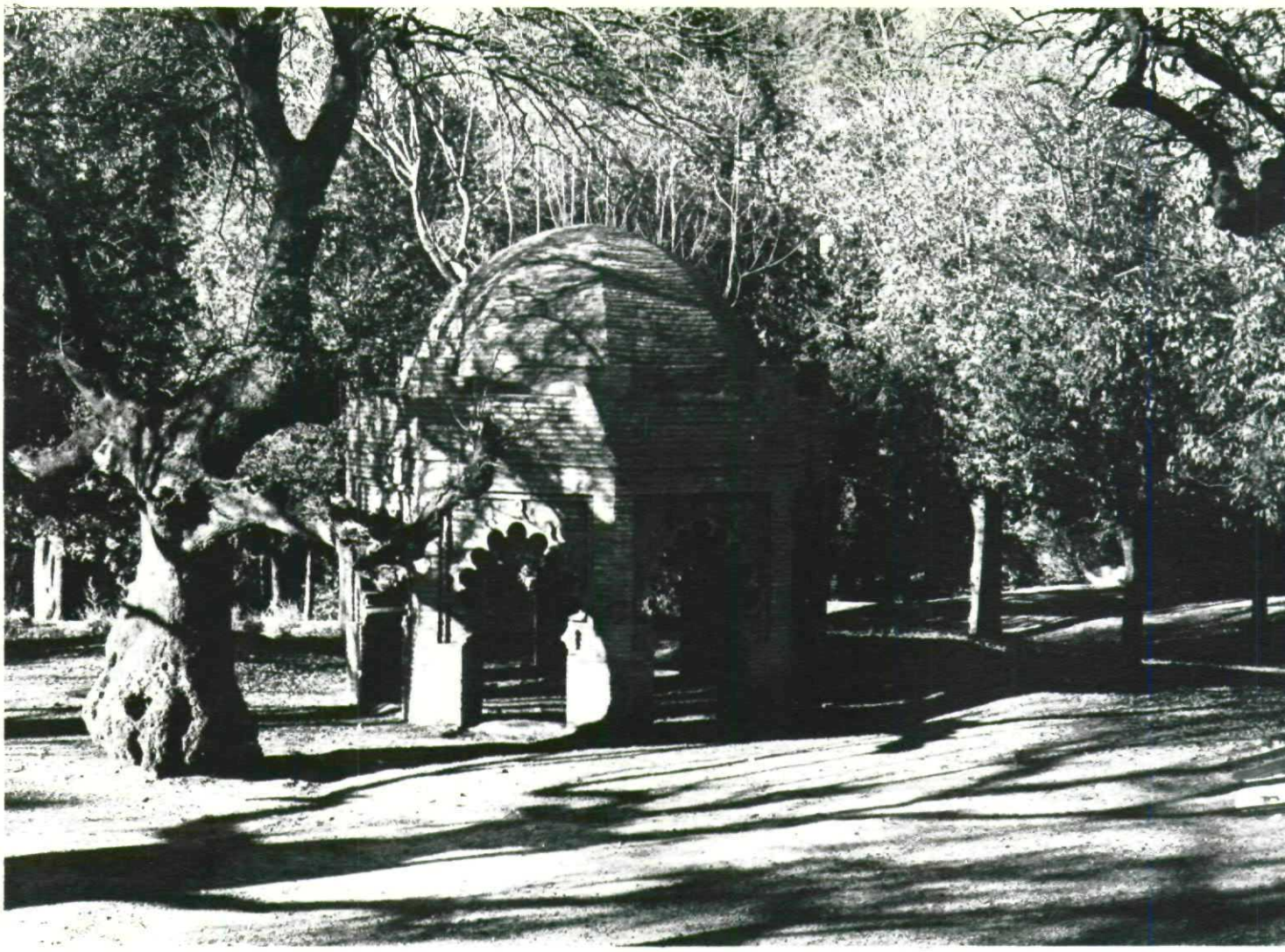

مبنى ضريح « سيدي يعقوب » ، وهو من المعالم التاريخية التي تحتضنها مدينة تلمسان .

بني مرين الذين استطاعوا ان ينتزعوا تلمسان من أيديهم مراراً ، ولكن لآجال قصيرة ، وكان آخرها افتتاح السلطان « عبد العزيز المريني » لتلمسان سنة ٧٧٢هـ (١٣٧٠م) ثم وفاته بمحلته تحت أسوارها بعد ذلك بقليل ، ورحيل جيوشه عنها ، وعودتها الى سلطان بني عبد الواد ، وبالرغم من هذه الغزوات ، والهزات المتوالية التي تعرض لها ملك بني عبد الواد ، فقد نمت تلمسان في عهدهم واتسعت خططها ، وازدهرت ايما ازدهار ، وقد اغدق ملوكهم عليها كثيراً من الصروح والآثار العظيمة . وكان ملوك بني عبد الواد حماة للعلوم والآداب ، وقد كانت هذه من أعظم سماتهم ومآثرهم ، فقد اسبغوا رعايتهم على العلماء ، وانشأوا المدارس العديدة ، وما زالت احداها باقية حتى اليوم بضاحية العباد ، وكان منهم علماء وادباء وشعراء . ومن أشهر علمائهم السلطان العالم الأديب الشاعر « موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمر اسن » المعروف بأبي حمو المتوفى سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م) وهو الذي وزر له الكاتب « أبو زكريا يحيى بن خلدون » أخا المؤرخ الفيلسوف « عبد الرحمن بن خلدون » وهو مؤلف كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » الذي يبحث في السياسة الملكية ، ويحتوي على أربعة ابواب : الأول منها يبحث في « الوصايا والحكم » والثاني في « قواعد الملك واركانه » ، والثالث في « الأوصاف التي هي نظام الملوك » ، والرابع في « الفراسة » ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية .

وكذلك ازدهرت في عهد بني عبد الواد ، التجارة والصناعة ، وعم الرخاء ، ونظمت تجارة تلمسان مع قوافل الصحراء ، وعبر البحر مع الثغور الفرنجية القريبة ومع الثغور الاسبانية الأندلسية والنصرانية . وكان ثغر تلمسان الصغير «مرسى هنين» منطلقاً لمواصلاتها البحرية . وقد اشتهرت كذلك تلمسان بصناعاتها العديدة . وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، عقب سقوط الأندلس ، وفد عليها كثير من

المهاجرين الأندلسيين ، ولقنوا اهلها كثيراً من العلوم والفنون والصنائع ، ثم وفد عليها بعد ذلك بنحو قرن ، كثير من الموريسكيين المنفيين ، فأورثوا أهلها كثيراً من خبرتهم ومهارتهم المأثورة في كثير من الصناعات والفنون ، وتشتهر تلمسان بطائفة من الصناعات الهامة ، وفي مقدمتها النسيج والمصنوعات الجلدية والصوفية وتشتهر بالأخص بصناعة التطريز الذهبي والفضي ، وتحتل بذلك بين سائر الحواضر المغربية والاسلامية مكانة مرموقة .

وفي اوائل القرن السادس عشر ، وعقب سقوط الأندلس ، بدأ عدوان الإسبان على الثغور المغربية ، فاستولوا على المرسى الكبير سنة ١٥٠٠م ، وعلى ثغر « وهران » وهو من أعمال مملكة تلمسان سنة ١٥٠٩ ، مما اضطر الأواخر من امراء بني عبد الواد ، ممن كانوا بوهران الى الامتثال لسلطة الاسبان . واما تلمسان فقدلبثت حيناً من الدهر مسرحاً لتنافس الاسبان والترك . واخيراً كانت من نصيب الترك ، واستولى عليها « صلاح ريس باشا » سنة ١٥٥٥م.

ولبثت تلمسان تحت الحكم التركي زهاء ثلاثة قرون ، فقدت فيها كثيراً من بهائها السالف ، ومن نشاطها الفكري وتقدمها العمراني ، وخيم عليها الركود والتدهور ، وظهرت بين سكانها طائفة جديدة ، هي طائفة « اللوغلي » ، وهم نسل الترك والنساء المحليات ، وكانت هذه الطائفة تكوّن نحو ربع تعداد السكان في منطقة تلمسان ، وتعرف بنشاطها ، وعلائقها الوثيقة بالأجانب .

ولما تحررت تلمسان من الحكم التركي في سنة ١٨٣٣ ، اعلنت عداءها لسلطان المغرب واخيراً دخلها الفرنسيون بعد افتتاحهم للجزائر بنحو عشرة اعوام ، وذلك في سنة ١٨٤٢ .

والآن فان تلمسان ، قد غدت حاضرة من ألمع حواضر الجمهورية الجزائرية المستقلة ، وأخذت تستأنف حياتها القديمة ، في ظل الحرية والكرامة والآمال العريضة .

• • • •

منظر داخلي لأحد أروقة جامع تلمسان الكبير الذي يعتبر من أبرز معالم المدينة الأثرية وقد تدلت من السقف احدى الثريات الجميلة .

واما من الناحية التخطيطية والعمرانية ، فان تلمسان مدينة كبيرة مترامية الأطراف ذات شوارع كبيرة وميادين فسيحة ، وتضم من السكان زهاء مائة وعشرين ألفاً ، وهي غنية قبل كل شيء بمساجدها وصروحها الأثرية التي تعكس مظاهر الفنون المعمارية والزخرفية الإسلامية في عصور متعاقبة ، ولا سيما العصر الغرناطي والموريسكي وأول هذه الصروح واهمها ، جامعها الأعظم ويرجع عهد تأسيسه حسبما قدمنا الى العصر المرابطي (القرن السادس الهجري)، وترجع منارته الحالية الى القرن السابع . وهو يدين بضخامته . ومعظم اجنحته الى اسرة بني عبد الواد ، وسلاطينها المتعاقبين ، وهو عظيم الواجهة فسيح الجنبات ، رائع النقوش والزخارف .

وثمة طائفة أخرى من المساجد الأثرية منها مسجد «سيدي بلحسن» وهو يرجع الى القرن السابع الهجري ، وله محراب أنيق رشيق ، ومنارة جميلة ، ويمتاز بزخارفه الجصية البارزة ، ومسجد « اولاد الامام »، ويرجع الى اوائل القرن الثامن الهجري . ومسجد وضريح « سيدي ابراهيم » ومسجد « سيدي السنوسي » ومسجد « سيدي الحلوى » .

ويوجد في داخل المدينة بقايا « المشور » وهو قصر حصين ، يقع على ربوة عالية ، أقامه ملوك بني عبد الواد منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

كما توجد خارج تلمسان الى الغرب منها اطلال مدينة المنصورة ، وهي المدينة الشهيرة ، التي أنشأها بنو مرين في أواخر القرن السابع الهجري أثناء حصارهم الطويل لتلمسان . ومنها بقية حسنة من الحصون والأبراج والأسوار وبعض اطلال القصر الملكي ، وجزء من منارة الجامع .

وأخيراً فان تلمسان ، تشتهر بنوع خاص بضاحيتها المسماة « العبّاد » الواقعة في جنوبها الشرقي وهي التي تضم ضريح العلامة الأندلسي الكبير « شعيب بن الحسين الأنصاري »

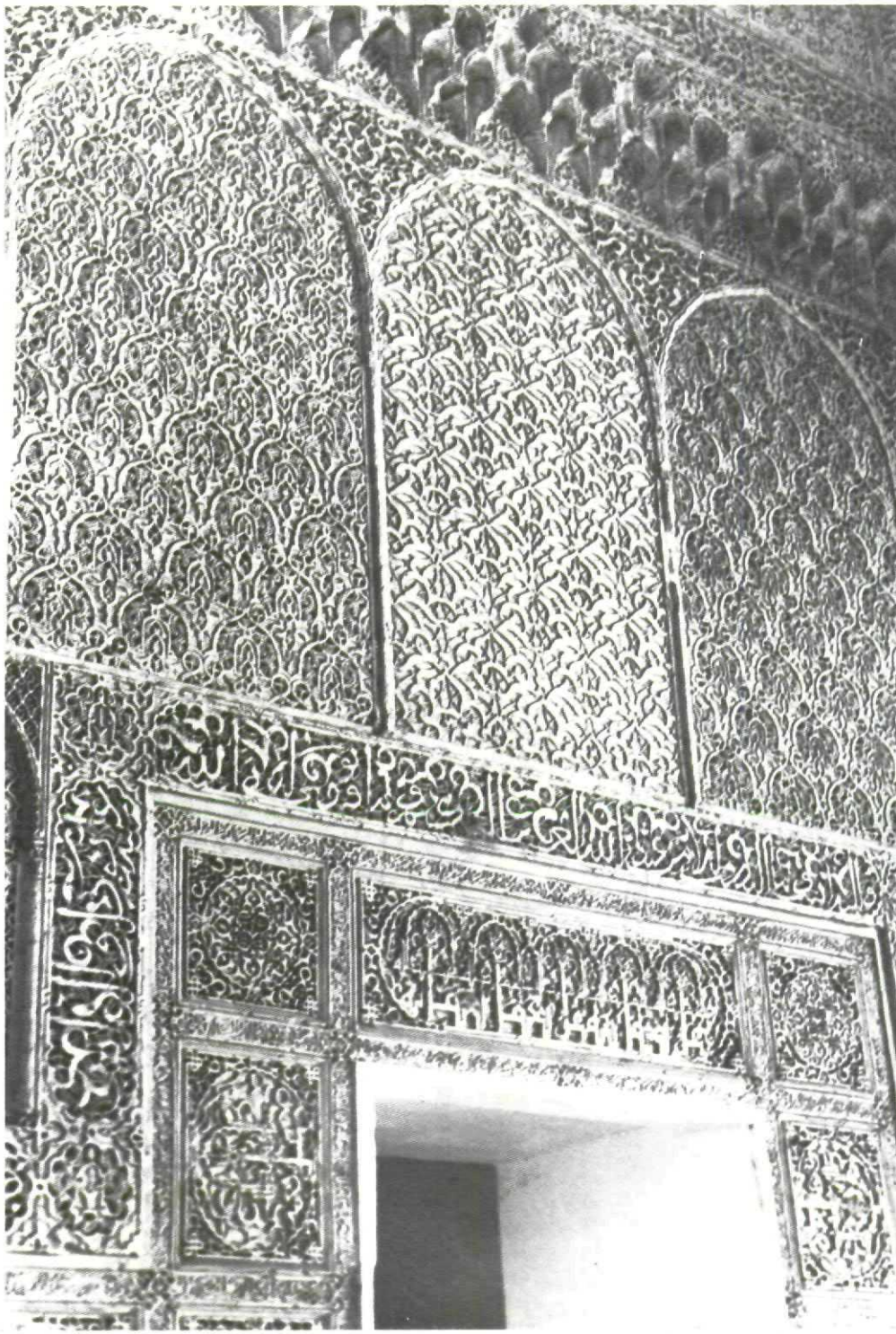

بعض الزخارف والنقوش الاسلامية التي تتجلى في أجزاء داخلية من مسجد السلطان أبي الحسن المريني .

المكنّى بأبي مدين ، المتوفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) وكان من أكابر الفقهاء والمحدثين وقد وفد في شبابه على المغرب ، ودرس بفاس ، وقرأ بجامعها الشهير – القرويين – مدة ، ثم انتقل الى « بجاية » وذاع صيته العلمي في كل مكان واسبغ عليه ورعه البالغ حلة من المهابة ، وقيل انه لما ذاعت شهرته وقصده الناس من كل فج ، يأخذون عليه ، نمى خبره الى الخليفة « يعقوب المنصور » وحذره بعض الفقهاء الموحدين من عظيم نفوذه ، فاستدعاه الخليفة لمقابلته ، فأخذ اليه في حالة إعياء وضعف ولكنه توفي في طريقه عند احواز تلمسان ، وذلك في أواخر سنة ٥٩٤هـ ، فحمله أصحابه الى رابطة العبّاد ودفن بها . وقد أقام الخليفة « محمد الناصر » ولد المنصور فوق قبره ضريحاً صغير الحجم ولكنه فخم مهيب .

وقد زرنا ضاحية العبّاد ، اثناء زيارتنا لتلمسان ، وزرنا ضريح « سيدي ابي مدين » ومسجده الفخم المواجه له ، ويقع ربض العبّاد فوق ربوة قليلة الارتفاع وتصل الى الضريح بواسطة طريق صخرية صاعدة ، يقع الضريح في نهايتها . وهو ضريح مربع الشكل ، تظلله قبة ذات اثني عشر جانباً ، وسقف من الآجر الأخضر وتغطى الأجزاء السفلى من جدرانه بالقيشاني الفاخر .

وقد جدد هذا الضريح السلطان الكبير « ابو الحسن المريني » ، عقب افتتاحه لتلمسان (سنة ٧٣٧هـ) وانشأ كذلك قبالة الضريح من الجهة اليمنى مسجداً فخماً على الطراز الغرناطي يمتاز بجمال عقوده وزخارفه وقناديله الغرناطية ، وله قبه عالية تتخللها الكوات المزينة بالزجاج الملون ، وصومعة ذات أوجه مزخرفة بأسطر الآجر ، وما زالت توجد بها بقايا من الدهان والقيشاني الملبس بالميناء وله باب فخم من خشب الأرز الملبس بالبرونز ، ويعرف هذا المسجد بمسجد « سيدي ابي مدين » .

• • • •

هذا وتشتهر تلمسان بين حواضر المغرب بتراثها العلمي العريق ، وكما ان مدينة فاس تعتبر حاضرة المغرب الأقصى العلمية ، فكذلك تعتبر تلمسان حاضرة المغرب الأوسط العلمية . وقد نبغ من أبناء تلمسان في ميادين العلوم والآداب جمهرة من الفقهاء والكتاب والشعراء ، نذكر منهم بعض الأسماء اللامعة التي تحتل مكانتها المرموقة بين اعلام الفكر المغربي .

فمن هؤلاء الكاتب والشاعر الكبير «محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجري التلمساني » المتوفى سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م)، وقد برع بالأخص في النظم المطول . ومن قوله في مديح تلمسان والحنين اليها :

تلمسان جادتك السحاب الروائح
وارست بواديك الرياح اللوافح
وسح على ساحات باب جيادها
مُلث يصافي تربها ويصافح

ومنهم الفقيه الكبير الخطيب « محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي » المتوفى سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م) ، وكان الى جانب تضلعه في الفقه وتبحره في علوم الدين ، بارعاً في النظم والنثر . وكذلك « أحمد بن يحيى الونشريشي » صاحب كتاب « المعيار في فتاوى المغرب والأندلس » وهو من أشهر الكتب في فنه . وقد توفي سنه ٩١٤هـ (١٥٠٨م) .

ومنهم أيضاً « أبو العباس احمد المقري » المتوفى سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣١م) وهو صاحب موسوعة « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، والتي تعد أعظم موسوعة من نوعها في تاريخ الأندلس وآدابها .

وقد خص (العلامة ابو عبدالله محمد المليتي المديوني) المعروف بابن مريم ، وهو أيضاً من أبناء تلمسان ، علماء بلده ، بمجلد ضخم ترجم فيه لنحو مائة من فقهاء تلمسان وعلمائها وادبائها ، وذلك حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وسماه « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » ■

محمد عبد الله عنان – القاهرة

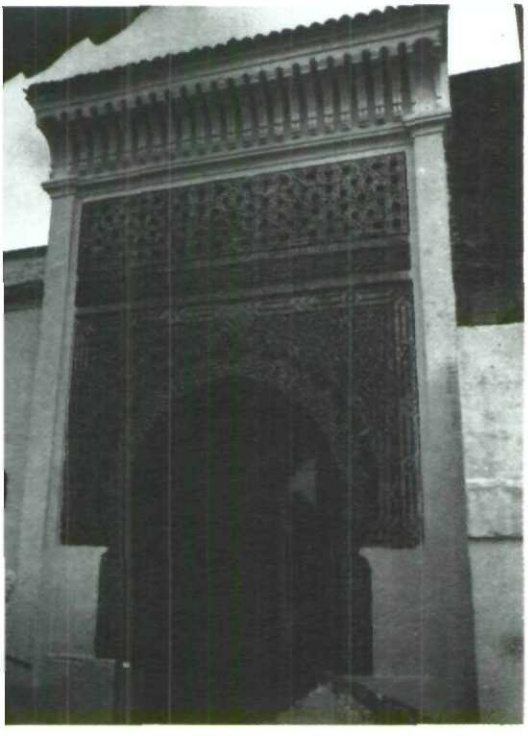

جانب من مبنى ضريح العلامة الأندلسي الشهير « سيدي أبو مدين » في تلمسان .